في الشعر ...

بقلم محيي الدين صبحي

الشعر .. غيضان قلب من يأس ، خفق جوارح في فرحة عرمة . غناء شاعر ألقى بنفسه بين أحضان الوجود في أمل . صرخة خائب في وجه الحياة بلذتها وألمها : باطل الاباطيل . الكل باطل .

انه تلك الاحساسات الصغيرة بما يدرك بالحس والفكر كالزمن وبشرة رائقة النعومة ، وهو شامل لما بين الفكر والحس من عمليات رمزية وجذبية مثل ذكرى تستيقظ في النفس من رسالة زرقاء الى درب قتل فيه صديق . وهو التقاط زئبقيات هاربة مثل عين محيرة النظرات او نشوة نغم يتخايل لنا من البعيد البعيد .. وهو حديث هامس متسائل عن كل غامض غير محدود مثل شكوك عابد في الرب . وهو استقرار عميق في نفس متأمل رواقي يستشرف العالم من عل كما انه طفرة متحمس لخلق عالم جديد . فهو يتناول كل شيء له هوية وكل ما يمر في نفس الانسان ويحدث لها رعشة توسع اتصالها بالكون او تعمق احساسها بالحياة . وكينونته تأتي من هذا التفاعل بين الانساني ونصف الانساني . انه مركب ثالث مثل الماء. ويمكننا ان نمضي بعيدا في مقارنة الشعر بالماء، فكما ان الماء يهبط من هتون الحزن او يتفجر عيونا من باطن التراب فان الشعر يستوحي من الخير والمثل ومن الحمأ والجريمة . وفي الاساطير اصل الحياة ماء وهوعامل على انعاشها فكذلك اصل الاداب الشعر وهو ينعشها دائما بما فيه من رموز واشارات . والقوم ينتشرون حول نهر يلخص حياتهم ويختصرها وملحمة من الشعر تكثف حياة امة وتركز معنى صراعها .. واخيرا فالماء كثير ولكن العذب الفرات نادر نفيس، وكذلك فاليتيمة والمفردة والابدة بين القصائد كنسبة النبع الى المحيط العظيم . ومسيل الماء يسقي عديدا من الاقطار ، والشعر كالسحاب شيء عالمي يسمو على الحدود وما يعتم شاعر القبيلة ان يصبح شاعر الامة والانسانية كلها .

وما دامت للشعر هذه الصلة الوثيقة بالحياة ، فالحياة ـ الشعر تستوحي كل جليل وجميل وسوالبهما ، وبقدر صلتها بهذه العناصر وفرة وبقوة تزداد الحياة ـ الشعر نماء وخصوبة ، على اننا لا يهوز لنا تفاؤل في قضية انتشار الحياة ـ الشعر بين الناس ، لحاجة الاحساس فيها الى رهافة نفس وذكاء قلب ومضاء فهم . والعادي الجلف لا يعانيها اكثر من مرتين او ثلاثا ، اولاها رجفة بلوغ المراهقة واكتشاف العضوية انها أهل لان تحفظ الحياة ثم تورثها فهي فرحة بامكان خلق . وما اظنه قد خلق ، ذلك الرجل الذي يعيش الحياة ـ الشعر معيشة يومية ، لان الحياة ـ الشعر تنفي الصدأ الذي تفرزه الحياة اليومية ولان الحياة ـ الشعر تكسر القضبان الحديدية للعادات التي تسير عليها الحياة اليومية ، فهي ضد سيزيف في رتابة عمله ، وهي اذا تناولتها خلقتها خلقا جديدا . وهي لذلك ترفض الكليشهات والتعبيرات الجاهزة . ومتى فقدت الحياة ـ الشعر اطارها المبتكر ووضعت في قوالب صنعها الاخرون اختنقت وماتت فليس فيها حد وسط : اما ان تكون محدثة كلها او لا تكون قط ، وهذا لا ينفي ارتباطها بماضي الابداع في وسطها كالنبتة الفينانة في غابة قديمة العهد تمتص من ثراها ما يكفل لها الحياة ويكفي اورادها ان تزدهر وثمارها ان تينع . وسلوكها ينسجم مع ماهيتها لذلك ليس لوحيها زمان موقوت ولا اغراء مرصود ، والذين يستدعون الخمر العتيق او فخذين عبلتين ويقدمونهما ضحية على مذبح الالهام مثلهم في ذلك كمثل الضارعين الى السماء بذبيحتهم كي تنزل عليهم المطر او المن والسلوى: لا احد يعبأ بهم وانما تعبأ السماء وساعة الوحي بمن يصونون الخير في قنوات ويعملون على ابقاء الخصب أيام المحل وفي السنوات العجاف .

والشعر مثل قطعة من الماس بين الحصى ، تظل كدرة كابية حتى تصقل وتشذب فتغدو جوهرة يأخذ بريقها بالابصار ، فاذا طرحها الجوهري الى السوق تناولها ناقد بصير وراح يعرض محاسنها ويقربها بمقارنتها بغيرها حتى تغدو مجلوة كأنما الف خيال براها . فاذا وصلت الى القاريء كانت تثير من رف اردانها أجواء من العطر والسحر والفنج فتدفعه الى ما تريد من المعجزات بعد ان تذهله وتطير بلبه فكل قيمة الشعر تكمن في ايحائيته : انه حافز ومثير .

وذوو الجناح المهيض وحدهم يعالجون النظم ـ رب لا تغفر لهم ـ بأفكار المباديء والنظريات ووقائع الحوادث والمناسبات فيطمرهم ركام اوراقهم ويموت قصيدهم ساعة يولد لارتباطه بجزئي سريع نسيانه، فهم منفصلون عما هو خالد مطلق او ابدي . انهم يأمرون بقسوة مثلمة

مثل سيد محدث نعمة لم يتعلم ان يشعر الاخرين حوله بانسانيتهم لانه لا يشعر بكرامته . اما السيد العريق في شاعريته فانه قريب منك ، قريب اليك ، تبلغ كلماته فؤادك دون ان يكلمك الا وحيا ويفهمك واجبك دون ان يذكره لك تماما ، بل انك لتحتاج الى العمل فهو قد أثار فاعليتك نحوه ، وحفزك الى تغيير حياتك الراكدة والى تغيير العالم من حولك. انك محتاج لان تقلب الاوضاع بثورة لاهبة وان تأخذ فتاتك بين اضلاعك لتبوح لها بما ترددت في قوله مرارا .. لقد خلقت من جديد فأنك ثائر وانت قديس وانت عاشق . انك ـ بعد قراءة الشعر ـ انسان جديد ، فقد خلق الشاعر منك بطلا !

وانت مهما فعلت ترجع اليه متسائلا : هل فعلت حقا ما يريد ؟ ذلك ان الشعر الجيد مثل الحلوة الذكية لا تعطي كل ما عندها من المرة الاولى .

.. أما وقد اصبحت بطلا فأنت اخو سفر جواب آفاق، تكتشف كل يوم معنى وفتنة وجمالا . والقراءات المتتالية تزيد الاثر عمقا في نفسك حتى تنعتق فيه وتصبح قصيدة على شفاه الناس زدتها انت من معانيك ابعادا ، فالبذرة الاصيلة لا تنمو الا في الارض الخصبة ، واذا كان الشعر رقصا فان تلقيه وتذوقه طيران بأجنحة ليلكية .

والشعر يتأطر بالحاضر ان كان الشاعر مستغرقا في عصره وحضارة عصره ، ويستشرف المستقبل في شفافية العارف المتنبيء وحماسة الهادم المتمرد ، او يتبنى مشكلة خالدة تنبثق من طبيعة الحياة والانسان كالموت او الغيرة، وهو في كل الحالات يعيش حياته وفق افكاره ، فهو في الحقيقة الانسان ـ المثال ، وهو افكار تسير بين الناس على صورة انسان . وما همه الا يقرها الاخرون ؟ تراهم عاشوا الحياة كما تمثلها ؟ وهل كشفت لهم الحجب ؟

والزمان حاكم عادل لا يعبط احدا ولا يغصبه حقه فما دام كل شاعر يعبر عن ناحية انسانية ، وما دامت كل حضارة تلتزم زاوية انسانية فانها لا بد ان تحتضن من يقف موقفها ، كذلك احتضنت الحضارة الانكليزية الخيام قبل ان يولد فيها اليوت . وهكذا . ففي الطبيعة لا يفنى شيء ولكن ـ في الحق ـ تولد اشياء كثيرة وجديدة جدة انتصارات الانسان على نفسه وتقاليده ومجتمعه والطبيعة التي حوله . ان طبيعة الحياة لا تتغير كثيرا ، او قل لم يتسن لانسان ان يشهد الفارق بين انسان العصر الحجري وانسان العصر الذري. لكن يتاح لكل انسان ان يشهد في عمره القصير تغير الحياة نفسها من حوله وفي اعماقه كلما حققت الجماعة حلما من احلام الانسان الراقد في اعماقها . وهل مراودة الشمس وتركيب العناصر والغاء المسافات واختصار الزمان الا موضوعات ملحمية من نتاج اخيلة الشعراء والحالمين الطامحين ؟

محيي الدين صبحي

الطائر المعفر

من هناك .. من الارض السليبة
من الشمال .. هذا الطائر المعفر ..

**

حط على نافذتي ، .. طير جريح اخضر
دماه من جناحه .. على الحديد .. تقطر
من الشمال .. حيث اطياف الاماني تخطر
وحيث .. احشاء الصخور ، بالحنين تزهر
حيث الربى تحكي الروايات .. ويشدو عنتر
من الشمال .. حيث ايام الشباب تقبر
وحيث يدفن الصبا .. هناك حيث يقهر
من الشمال من ذرى .. تاقت اليها الانسر
قد عشش البغي لها .. وافرخ المستعمر
والليل فوق صدرها ، .. ليل كئيب أغبر
من الشمال حيث اجناد الفساد عسكروا
وحيث اشياع الاذى بالمكرمات استهتروا
من الشمال .. حط هذا الطائر المعفر
الريح من ورائه .. والعاصفات تزأر
والموت ، والليل الرهيب .. والاذى والعسكر
مشرد مثلي .. ومثل والدي .. محير

**

يا طائرا يزقو .. على نافذتي ويزفر
ويضرب الحديد من آلامه وينقر
الليل مهما أمتد .. لابد الغداة يقهر
والظالمون في غد .. اعلامهم تكسر
وانت .. أنت .. من جديد في الفضاء تصفر
وتملأ الدنيا ... غناء طائري وتسحر
فالفجر من جناحك .. الدامي غدا سيظهر
وفوق كل ارضنا ... نور الصباح ينشر

غزة : فلسطين — **هارون هاشم رشيد**